

يوميات الحرب: كم حرباً نحتاج حتى نحفظ «معجم البلدان»!!

رائد وحش

تم إسقاط أرقام اليوم والشهر والسنة بشكل مقصود،
فكلما عدناها أخطأنا من فرط التشابه.

... /... /...

والحرب، مثلاً، مواعدهُ الأمِّ في منطقةٍ محايدة.
والحرب، مثلاً، أن تكون هناك "هيلين"، وإلا ما الفائدة؟
والحرب، مثلاً، أن تحبل البنت من الأعداء.
والحرب، مثلاً، انتهازُ الأختِ فرصةَ القصف لعناق أخيها القاسي.
والحرب، مثلاً، أن نُعلِّل البكاءً بأغنية.

... /... /...

الشُّعر أن تكون في «طروادة»، وليس جلوسك على الشواطئ تتسقط أخبار المحاربين.
الشَّاعر من وقف بوجه فيكتور راكباً أو راجلاً، أو هو فيكتور نفسه. الشاعر صاحب السهم الذي
أصاب عقب آخيل، أو هو آخيل نفسه.

القصيدة حياة من هزم الموت، ثم سخر من السيرينيات، ثم فقأ عين السيكلوب الأعور، لا من عاش
ليستبدل عماءه بشلل ألسنة الأبطال العائدين لكي لا يجدوا ما يروونه، فقد سُرقت منهم الحكاية.

لكنْ حقاً ماذا لو لم تكن هناك «طروادة» أو «إيثاكا»، فيكتور أو أخيل أو أوديسيوس؟؟ ماذا لو أن هوميروس هو من فعل كل ذلك، ولأننا لم نجد له اسماً سمّيناه قصيدة؟

... /... /...

الحروب تزلزل الجغرافيا حين تنقل أنأى الدساكر والقرى من هامشها لتنازع كبرى العواصم السياسية والاقتصادية..

في ٢٠٠٣ حفظنا قرى الجنوب العراقي: أم القصر، الفاو..

الأمر نفسه حدث في ٢٠٠٦ مع قرى الجنوب اللبناني: عيترون، مارون الراس، عيتا الشعب، بنت جبيل..

أما فلسطين التي لا تستريح فباتت شبه محفوظة، غزة، كنموذج، حُفظت حتى حاراتها..

ثم عرفنا ليبيا، قرية قرية، بلدة بلدة، مدينة مدينة.

بالنسبة لي أعدتُ اكتشاف سوريا من جديد، فعرفتُ أسماء بلدات وقرى للمرة الأولى، مع أني لم أغادر البلد إلى أمكنة أخرى تعيق اكتشاف المكان الأول: تلبيسة، البيضاء، كفر نبل، الحولة، بنش، تفتناز..

كم حرباً نحتاج حتى نحفظ «معجم البلدان» يا يا قوت الحموي..؟؟

... /... /...

مطرٌ أَيْتَهَا السَّمَاء

لِلوَجْهِ الصَّغِيرِ.

مَطْرٌ.. مَطْرٌ

وإلّا ضاع بين الأنقاض.

... /... /...

الإسلاميون ينقبونها.. وربما "يثقّبون الوصاوص للعيون"..

الشعبويون يُلبسونها الجلباب طويلاً وفضفاضاً..

العلمانيون يريدونها بالتنورة القصيرة..

لكن الحرية تأتي إلا أن تكون عارية..

... /... /...

يقولون إن الغراب يغيب منتصف السنة لأنه يذهب إلى الجحيم كي يدفع نصف ريشه راتباً

للسيطان. يقولون ذلك وليس فيهم من يبالي بالريش الأسود الذي يكسو ظهورنا!!

... /... /...

إذا كان الذهب سرّ «أولدورادو»، والفضة اسم «بوتوسي» عند الهنود الحمر. وإذا كانت آلهة الحكمة متجسّدة في أثينا، بحيث أصبحت المدينة معادلاً ثقافياً للفلسفة وإبداعات العقل.

وإذا كانت بغداد مولوداً من حريق، لأن أبا جعفر المنصور لم يفهم تصميمها إلا حين أحرق مهندسوها ارتساماتها ليلاً بينما هو على التل يقرأ خريطة النار، وبسبب حريقها الأول لم تتوقف عن الاحتراق في تاريخها اللاحق.

وإذا كانت القدس قد احتاجت أن تكون في قلب كبرى صراعات التاريخ حتى استطاعت، من أرضها ومكانها، منافسة السماء رفعةً وسمواً.

وإذا كانت بيروت معقلاً للحالمين بتغيير العالم وصنع الفجر العربي الجديد.

إذا كان كل ذلك لكل المدن كي تكون، فإن قابلية حمص للأسطورة كبيرة، بل لعلها من أكثر مدن عصرنا التي ترشّح نفسها درة للمدن الأسطورية، وإذا كان كثيرون يرون أن المدينة تأخرت في صناعة أسطورتها أسوأً بالمدن الأسطورية فهذا يعني أن حمص لم تقنعهم بوصفها عاصمة النكتة العالمية، أو بوصفها معقل النساء الجميلات.. أسطورة حمص البسيطة أنها لا تريد أن تكون أسطورة.

... /... /...

مع هذه اللحية هو واثق أنه سيفوز بالانتخابات..

لحيته مشروعه السياسي، لحيته بيانه.

... /... /...

أجلس إلى الطاولة التي نجلس إليها عادةً وأكتب..

طريق المدينة مقطوعة. «انقربتُ في البيت» كما يقول جاري. آخر مرة كنتُ فيها بدمشق انتبهتُ إلى حزن الأرصفة، وأخذتني سيالة الهواجس إلى الإقرار بأن هذه الأرصفة لن تعرف فرحاً إلا إذا مَشَّيتها. ضعي بين أسباب مجيئك فكرة تأهيل أرصفة دمشق. عادةً نرى ورشات البلدية تبلط وتزفت تحت عبارة «إعادة تأهيل». الآن الشوارع خالية إلا من ناقلات الجنود، والإسفلت تالف بسبب جنازير الدبابات.. تعالي مشوراً واحداً فقط، مشوراً من أجل إعادة تأهيل الأرصفة بالخطأ.

... /... /...

لحظة كتابتي تُزامنُ موتَ آخرين. عما قليلٍ نرى ذلك الموت في مقاطع فيديو على الإنترنت. عما قليلٍ نشم في الهواء روائح القبور الجماعية. حبي فائضٌ عن حاجة هذا الأسي. حياتي فائضةٌ عن حاجة هذا الموت. لماذا لا يجد الحب من يصوره..؟ لماذا لا تجد الحياة من ينشر أخبارها..؟ عالمٌ زائلٌ إذا، هذا الذي يعاف أخبار الحياة.

... /... /...

يصبح الديك. لا يزال بمقدور الديكة إعلان النهار!!
كلّما خيم الليل علينا وبدأ بفرد تشكيلته الواسعة من القذائف والقنابل والحمم قُلْنَا لعلّه يومنا الأخير!! فجأةً تُعلنُ الديكة الحياة، فجأةً تعلنُنّا!!
أكرهها؛ وظيفة الديك الذكورية، لكنّ شهامته في إيقاظ الشّمس تجعله ضرورةً. في الحرب نحتاج إلى الديك البلديّ احتياجنا إلى الخبز والماء والكهرباء والدواء.
وحدهُ يعلن توقّف القصف. وحدهُ الرّبُّ مقيم العدل، لو مدّة شروق شمس.

... /... /...

بين أخطر ما حدث في هذا العصف أن علاقتي بـ"لولو الصغيرة" صارت هاتفية.

... /... /...

أمام ما نراه من تبرير المثقفين لتوجهات وأفكار الإسلاميين والسلفيين والتكفيريين... أتخيّل وزارة الثقافة المستقبلية مجرد مكتب ملحق بوزارة الأوقاف المستقبلية.

... /... /...

هناك رواية لكاتب فلسطيني تحكي عن مخيم "خان الشيخ" في بداياته، لاسيما حينما طيرت عاصفة عاتية خيام اللاجئين إلى الهباء.

أكثر ما أعجبني في هذه الرواية عنوانها: "مخيم في الريح"، لأنه ليس مجرد عنوان بل تميمة...!!

... /... /...

غريبٌ كمدينة مدمّرة، وحيدٌ مثل ليلٍ.

وحزين كالليل في تلك المدينة..

... /... /...

رجلٌ تفوح منه رائحة فراق. رجل آخر يعطّر الشارع بعبق الوحدة. طفل يركض وتهبُّ منه عاصفة يثّم. وفي الأعلى، في فضاء الروائح، يستعد المكان للتسمّم.

... /... /...

لا أحسد أحداً إلا الشخصية الرئيسية في فيلم "لائحة شندلر". أنقذ المئات من المحرقة، بينما نقود المئات إلى المحارق.

... /... /...

الصغيرة التي نامت على نشرة الأخبار، وجدوها مدفونة في ضريح من المكعبات الملونة.

... /... /...

منذ «جلجامش» و«كتاب الموتى الفرعوني» و«تموز»... والموت فكرة عظيمة، فكرة تعاضت إلى هذا الحد حتى تكون الحياة عظيمة إلى هذا الحد وأكثر.

الموت أضح الحياة الشقيقتي، لا عدوها..

الموت معنى يتممها ويوازها، لا نقيض يزيج أساسات أساساتها.

هذا الموت طبيعي كالحياء، حقيقي مثلها، ويقف معها الآن ضد ذلك الموت المؤبلس بالاستبداد..

... /... /...

الصباح: حمام كثير، وسلام قليل.

... /... /...

ولأنه لا بد من حب لإيقاف خلل المعنى الذي تواصل الحرب تأجيجه، ابحت عمّن وجدوا حباً لا تجده، اذهب إلى بيت العاشقين الصغير، وحين تراه ثالث الاثنين فكّر كم أنت غريب في هذا العالم وفيك...!!

قد يبدو بيتهما فكرة هامشية أمام سباق الموت المفتوح، وحث الخطى والمصائر إلى الهاوية، لكن قدرة قلبيهما على إبداع غدٍ أبيض، في طبخة بسيطة أو مشوار فقير، تربك كم أنت والعالم غريبان في العالم وفيكما...!!

ليس العاشقان في بيتهما، فالعاشقان هما البيت، ولن يباليا بالنزوح أو الحصار ما دام الحب قابلاً للترحيل. ولن يفكرا بالنجاة إلا لبقيا معاً، كما لن يفكرا بالموت إلا ليمضيا معاً.

لا أفكر بشيء سوى دعوة العالم للسكنى في بيت العاشقين الصغير. نعم سأفعلها بكل تأكيد، لكن عندما أجد بيت العاشقين الصغير..!

... /... /...

أنا مخيم. أبدأ بمقبرة وأنتهي بمقبرة.

في ست مدارس رغم ذلك الأميون أكثر من المتعلمين.
في مستوصفان يوزعان الدواء مجاناً لذا جميع سكاني مرضى.
وجهي بلوك، بشرتي بقايا إسفلت ورمل وتراب، فالإقامة في الحارات كعرف معيشة، والخطوات
الحثيثة تمحو طموح طريقي في العمر الطويل.
أنا مخيم أبداً بمقبرة وأنتهي بمقبرة وعماً قليل سأملاً الفراغ بينهما، لأكون مخيم نفسي، لا مخيم
سواي.

... /... /...

هذا هو النهار الموصوف في مواضيع الإنشاء المدرسية: شمس قوية تمزق الغيم، ودفء يعيد نضارة البيوت.
هذا هو النهار الذي يحبه الأطفال لأنه يمكنهم من أولى مهارات العروض فينشدونه على هذا المنوال:
"صباح جميل
نسيم عليل.."

هذا هو النهار الذي يعيد شهامة الطبيعة في عطفها على ابنها الإنسان، ليعيد ترتيب علاقته المختلة
مع الكون بالبر والإحسان.
هذا هو النهار المنتظر لولا النيران التي هي نيران كل نهار.

... /... /...

ما كنت لأتوانى عن إبادة الهنود الحمر، أو استعباد الأفارقة. ولا كنت لأتردد عن ارتكاب مجزرة
حلبجة أو صبرا وشاتيلا، أو أي من الجرائم التاريخية ضد الإنسانية في دارفور والصومال وغزة..
وسوريا بلا شك.

جاهزٌ ومستعدٌ لإعلان حرب المئة عام، والحربين العالميتين، وحرب الخليج، وحروب لبنان..
والحرب الباردة أيضاً..

جاهزٌ لفعل الخراب، كل الخراب، مقابل أضال احتمال لوجود هيلين واحدة...

... /... /...

لا يسمح غياب الغاز بفنجان قهوة يجعلك تعيد لحظة محمود درويش. ولا يسمح غياب الكهرباء
بابتكار بديل غير السحان.

لا بد من قهوة ليتوقف غرور الطائفة، لا بد من قهوة ليتوقف خوف البيت..!
القهوة خلاص في الوصفة الدرويشية. وضع حد لخطرسة الموت التي لا تعترف بحد. والقهوة لغة

واضحاً في برج بابل الذي يخلقه القصف، وتفكيرٍ سديدٍ في المهاتمة التي يشيدها الرب.
بعيونِ البال تضع ركوةً على نارٍ في البال، وتركها تندلقُ وتندلقُ كما يشاء غليانها، وحين يمتلئ البال
برائحةِ البنِّ المحروق تشربها شمماً ليرتاح البال.

... /... /...

لا يجب أن تبقى وحيداً. في الحرب تحتاج إلى مجالسة الآخرين طوال أربع وعشرين ساعة. لا مجال
للعزلة. المعزول محكومٌ بالإعدام الميدياني نحرأً بالهواجس.

في اللحظة التي تجد نفسك فيها وحيداً ستظنُّ أصوات الصَّبِيَّة في الحارة ثرثراتِ عساكر قادمين
لاقتحام البيت. ستصبح حشرة الجار، أو شخير الجار الآخر، مكبرات صوت لإخلاء المنطقة. ستظنُّ
انفتاح الأبواب رصاصاً، والخطوات العابرة، بينما تتناهى بشكلها العادي من الشارع، أناساً يهربون.
لا تبق وحيداً، الوحدة هزيمة.

في الوحدة ستجد أنك تعدّ القذائف، وأنت تعرف جيداً بأن أول خطأ في العد هو انتهاء حياتك.

... /... /...

محاولات المصور لأخذ صورة لجواز سفري باءت بالفشل.

كل مرة يخرجُ الوجه بلا عينين، وكلما شاهدتُ وجهي هلعتُ أكثرَ ففشلتِ الصورُ أكثرَ.
صرتُ رهينةً لدى كاميرا لا تفهم استحالة تصوير عينين خائفتين.

... /... /...

"يحيى سيسافر" قالوا.

"فلنذهب لتوديعه"، قلتُ لهم. "فرصة لسهرة تستريح فيها الهواجسُ في الحشد الكبير، الجماعة
حاجة ذاتية الآن"، قلتُ لي.

في اليوم التالي رأيتُ بعض السُّمَّار المودعين فسألتُ إن كان صاحبنا وصل مبتغاه. ضحكوا وقالوا
إنهم منذ سنة يواظبون على حضور سهرة الوداع هذه كل خميس، ويحيى لا يسافر.

يحيى مثلنا يريد حشداً ينسى فيه يحيى.

... /... /...

فرضت الوقائع على السوريين اجتراح إعلامهم الخاص، فأطلق كل حيِّ صفحة باسمه، ثم صارت،
خلال مدة وجيزة، صفحاتٍ حسب الهوى السياسي للمشرفين عليها. وخلال سنتين من العمر الدامي
لسورية استطاعت هذه الصفحات أن تتحوّل إلى منابر محلية تنقل مجريات الأحداث، وتوثق

يوميات سگانه، وتقدم الإرشادات والنصائح والتوجيهات الأمنية. ولعل الاختلاف كان في انقسام هذه الصفحات بين عنوانين عريضين: «تسقيفة» و«شبكة». بحيث لا يخفى التّضارب والتناقض في رؤية الخبر، كما لا تخفى النبرة العدائية بينهما، وهو انقسام ينتمي إلى الانقسام الأساسي الحاصل على الأرض وفي الواقع. فكما ساهمت هذه الصفحات في توضيح الوقائع واستجلائها ساهمت بالقدر ذاته في التشويش والإربكاك. لكنها، وخلال هذا كله، كانت تقول لنا، هكذا كان المشهد.

التاريخ السوري موجود في كلّ هذه الفوضى، في كلّ هذا الضباب، في صدقه أو كذبه، في جودته أو ركاكته. وهذه الصفحات، أياً كان الرأي الراهن بها، هي سردية محلية واكبت الأمل والتّزييف ولن يكون بمقدار مؤرخ المستقبل أن يتجاهلها.

... /... /...

أعرف "نهر عيشة" قبل أن يزيل "أتوتسترد درعا" أكثر من نصفها. أعرفها بما أزيل منها وبما بقي. مشهدها العاديّ الذي يراه الآخرون لم يكن يوماً المشهد نفسه فيّ، فلطالما كانت عيوني تصر على مشاهدة الغائب في الحاضر، الزائل في الباقي، منذ كانت بساتين لا أعرفها إلا من خلال أشجار يتيمة، إلى أن صارت خياماً طابقيّة من الإسمنت أعرفها جيداً جيداً.

لا أدري إن كنتُ سأعرفها بعد ما يزال الآن منها، ذلك أنه يزيل فوق ما يزيل من الحاضر كثيراً من ماضٍ سريّ لا يعرفه إلا من خبروا وجع العشوائيات.

... /... /...

شاقّة هي الطريق إلى مدينة «واو»، «وطن الرؤى السماوية» لدى طوارق الصّحراء الكبرى. وعلى ذمة إبراهيم الكوني تتدخّل الأسطورة لتسيير رحلة الأب والابن إلى وطن الحقيقة والتهارة حسب أصول ناموس أهل البادية. فلا يتمّ السّفر دون التهام ثمرة الترفاس (الكماة)، ولكن ليس أي ترفاسة نابتة في الرمال، لأن هذه الفاكهة لن تصلح باصاً إلى الوطن إلا إذا كانت معضوذة بنائيّ أفعى قاتلة.. في قصّة الكوني عيون الأب المنطفئة بعد القضمة الأولى خاطبت عيون الابن الذي يأخذ حصته: الآن بدأت الرحلة إلى «واو».. توضيح لكلمة الترفاس

في رواية «باب الشمس» يجلب يونس الأسدي، خلال تسلله من لبنان إلى فلسطين، كيساً من برتقال البلاد.. وفي الفيلم المأخوذ عن الرواية يفتتح المخرج العمل بمشهد وليمة البرتقال، حيث يأكل يونس والدكتور خليل وأم حسن بنهم حيواني، حتى أنهم يكومون تلة من القشور، بينما يونس يقول: بدنا نوكل فلسطين كلها..

كلا المشهدين اللذين ينطلقان من الأكل يحيلان إلى الموت.. الموت كطريق إلى الوطن الأسطوري بنبتة مسمومة جرياً على ناموس قبليّ، والموت تخمّة بثمرات أرض الوطن الضائع..

بالنسبة للموت العاصف بشوارعنا اليوم إلى أي نوع من أنواع الأكل يحيل؟؟

... /... /...

لم تلد سوريا أطفالاً،

الأطفال ولدوها.

... /... /...

الحمامة السيتية الواقعة باطمئنان فوق قبة مقام "ابن عربي" هي التَّظَام، حبيبةُ الشيخ الأكبر.

الحبيباتُ، فقط في دمشق، يصرن حماماً على المآذن والقباب.

... /... /...

لتعرف كيف يفكر النظام السوري ترقّب مناسبة وطنية، كيوم الأرض مثلاً، وسترى كيف أن كل ما يذهب إلى الجبهة ليس سوى سيارات الإسعاف.

... /... /...

ولكم قصدنا «دوماً» لأكل لحم الجمل! ولكم سعينا إلى «الميدان» لنستدفئ في الشتويات بأكلة «مقادم»! ولكم ذهبنا إلى «المزة» لنعود بسحاحير الصبارة، كل «كوز» يُنبث في القلب «مزة»، وكل «مزة» تُنبث في القلب شاماً!

ولكم التهمنا النسائم في «الزبداني»، لتتبدل الروح القديمة عقب ولائم الهواء روحاً جديدةً! ولكم ابتلعت بيوتنا من حجارة «رنكوس» رخاماً تطيب به السكنى، ويطمئن به الساكنون!

لكم أكلنا البلاد...! فما الضير إن أكلت منا البلاد يوماً..؟

... /... /...

أعدت "كفرنبل" الوهج إلى فكرة الجماهير حين رفع أهلها خلاصاتِ الخلاصاتِ على ورقٍ في وجه العاصفة.

سخرنا من العالم كأطفال مشاغبين. رفضوا بروح الشباب الذي يعرف ماذا يريد. لعنوا بلغة تليق باللعنات.

لم يلتفتوا إلى معنى ناجز بل أنجزوا معنى طازجاً، معناهم ومعنانا. ولم يركنوا إلى وصفة جاهزة بل اخترعوها وكأنهم عيادة هذا البلد المريض.

فعلوا المعجزة التي لا يفعلها إلا الناس العاديون، لكي لا يبقى هناك أكاديميون يلحقون قدم السلطان، ولكي لا تنجح الفضائيات الأكبر من مساحة دولها على جعل دولة أحلامهم تصغر كتلك الدول.

فعلوا ما فعلوه لأنهم يعرفون أن الحقيقة هي الواقع، لا الواقع كما هو.. فما جدوى الثورة إذًا؟ بل الواقع كما يجب أن يكون.

كان لا بد من "كفرنبل" لأنه لا بد من حوذبي لعربة سوريا العابرة كالريح فوق هذه البرازخ. ... /... /...

هل المخيم مكان فضولي؟ أتساءل لأن الاشتباك الذي يدور منذ الصباح على الشارع العام، أول المخيم، لم يمنع الأهالي من التجمهر على طول الطريق، وعلى سطوح المنازل، ليراقبوا النار ويعدوا صليات الرصاص ويتباروا في تسمية الآليات العسكرية.

أهو فضول أم طيش؟

العساكر أطلقوا أكثر من مرة باتجاه الناس لتفريقهم، فالبعض لم يبق أمامهم إلا أن يقعدوا فوق الدبابة. علمتنا صفحات الإنترنت طرق السلامة، التلفزيونات لم تتوقف عن بث الإرشادات، القادمون من المناطق المنكوبة حملوا خبراتهم في الوقاية إلينا، لكن أهل المخيم بدوا غير مباليين بشيء من هذا، فالكبار والصغار، الرجال والنساء، كلهم في الخارج على مقربة من المعركة، لا يفعلون شيئاً سوى النظر بكرهية إلى الجنود والضباط، بطريقة لا تحتاج إلى ترجمة.

حاولت أن أسأل أكثر من شخص وشخص عما يفعلون هنا؟ الكل أجابوا إنهم هنا لأن الآخرين هنا، مع ذلك حين عاد بعض الآخرين لم يعد بعض آخر الآخرين، ليستقيم التعليل بأنها مجرد عدوى. يقال إنهم في غزة على هذا الحال. ربما كان الفضول مرضاً فلسطينياً، أعراضه الواضحة الذهاب إلى الموت قبل أن يأتي..!

المخيم مكان فضولي؛ لأن العيون مادة صناعته الأولى.

... /... /...

هل أنا مختبئ في بيت صديقي؟

لماذا أسمع صوت أمي تناديني إلى الفطور؟ لماذا يصلني سعال أبي خارجاً إلى الوظيفة؟

لماذا أسمع الانفجارات ذاتها، من المدافع ذاتها؟

يقولون: كلنا تحت سماء واحدة، وأقول: السماوات كثيرة جداً، الموت فقط واحد..!

هل أنا مختبئ في بيت صديقي البعيد؟ ولكن أين صديقي.. أين؟

البيت يتراءى بيوت آخرين حين لا تجد مخبأ..!